

الإثنوغرافيا من العالم الواقعي إلى العالم الافتراضي

Ethnography From the Real World to the Virtual World

د. زينب خللفة*، جامعة أم البواقي، الجزائر.

Khelalfa.zeineb@gmail.com

تاريخ التسليم: (2020/03/09)، تاريخ المراجعة: (2020/04/29)، تاريخ القبول: (2020/06/14)

Abstract :

ملخص :

Ethnography is one of the methods of qualitative research emanating from anthropology, which has been used in many fields, especially social sciences. Ethnography is concerned with the study of the human culture of individuals from its cultural and civil dimensions, relying in particular on participatory observation and on immersion in the individuals' daily lives. This approach has evolved and moved from the real world to the virtual world thanks to the development of Internet and the increasing integration of individuals in it. The latter has become a suitable environment for research and opened new horizons for ethnographic work. The transition to the virtual world has brought about radical changes and challenges to the ethnographic work, which have affected data collection tools and the research scope itself. Consequently, discussions about practicing ethnography online, off-line or both together have emerged. The concept of context has been raised as well, as an important methodological issue due to the multiplicity and complexity of the research environment.

Keywords : Ethnography, Digital Ethnography, real world, digital world, Context

تعتبر الإثنوغرافيا إحدى طرق البحث الكيفي المنبثقة عن الأنتروبولوجيا، والتي استخدمت ضمن العديد من العلوم خاصة الاجتماعية منها. اهتمت الإثنوغرافيا بدراسة الثقافة الإنسانية للأفراد في بعدها الثقافي والحضاري، معتمدة بشكل خاص على الملاحظة بالمشاركة، ومعايشة الأفراد في حياتهم اليومية. تطورت هذه المقاربة وانتقلت من العالم الواقعي إلى العالم الافتراضي، بفضل تطور الإنترنت وزيادة اندماج الأفراد فيها، حيث أصبحت هذه الأخيرة بيئة مناسبة للبحث، وبالتالي فتحت آفاقا جديدة للعمل الإثنوغرافي. لقد أدى الانتقال إلى عالم الإنترنت، إلى إحداث تغييرات جذرية في العمل الإثنوغرافي، ووضعها أمام العديد من التحديات، وهو الأمر الذي انعكس على أدوات جمع البيانات، ومجال البحث في حد ذاته؛ فأصبح الحديث عن ممارسة الإثنوغرافيا على الخط أو خارج الخط، أو الجمع بين كليهما، كما طرحت مسألة السياق كقضية منهجية مهمة، بسبب تعدد بيئات البحث وتعدد.

الكلمات المفتاحية: الإثنوغرافيا، الإثنوغرافيا الافتراضية، العالم الواقعي، العالم الافتراضي، السياق.

مقدمة:

تعتبر الإثنوغرافيا الطريقة التي يتعايش فيها الباحث مع المبحوث لفترة من الزمن، عن طريق استخدام الملاحظة بالمشاركة والمقابلة. فهذه الطريقة البحثية هي أحد الطرق الكيفية، التي تستدعي فيها عملية جمع المعلومات الاقتراب أكثر من مجال البحث، والاحتكاك بالمبحوثين في حياتهم اليومية من أجل الحصول على المعلومات والبيانات المطلوبة، حتى يستطيع الباحث كتابة تقريره النهائي الذي يستعرض فيه نتائج المعلومات التي جمعها.

إن الإثنوغرافيا هي العملية التي يقضي فيها الباحثون وقتا طويلا يلاحظون ويعايشون ثقافات الأفراد والشعوب في بيئتها الطبيعية، وفي السياق الذي تحدث فيه مختلف التفاعلات الاجتماعية بين هؤلاء الأفراد، فهم يسجلون وينقلون ما يحدث دون تدخل منهم أو تعديل أو تغيير لمجريات الأحداث، مستخدمين الملاحظة بالمشاركة في المقام الأول. يركزون على المعاني التي يخلقها المبحوثين في حياتهم الاجتماعية، ويعملون على تحليلها وتفسيرها، بالرجوع إلى سياقها الطبيعي، من أجل كشف خباياها وحيثياتها.

لا تختلف خطوات إجراء البحوث الإثنوغرافية عن تلك الخاصة بالبحوث الكيفية، التي يبدأ فيها الباحث من سؤال أو مشكلة بحثية، وينتهي فيها بإعداد تقريره عما لاحظته وعايشه، خلال فترة احتكاكه بالمبحوثين المشاركين في الموضوع محل الدراسة.

تأثرت الإثنوغرافيا كغيرها من أنواع البحوث الأخرى بالتطورات الحاصلة في مجال التكنولوجيا عموما، وشبكة الإنترنت خصوصا. فقد أدى تنامي دور هذه الأخيرة في الحياة الاجتماعية للأفراد، وزيادة التصاقهم بها واستخدامها في مناحي الحياة المختلفة، إلى ظهور اتجاهات بحثية جديدة تتعلق بأولئك الذي يستعملون الشبكة العنكبوتية، فأصبح الحديث عن إثنوغرافيا الإنترنت أو الإثنوغرافيا الافتراضية أو غيرها من التسميات.

إن انتقال الإثنوغرافيا إلى عالم الإنترنت أو العالم الافتراضي، أثر لا محالة على خصوصيات البحث الإثنوغرافي وعلى طرق إنجازه. فلم يعد ميدان البحث هو العالم الواقعي الطبيعي الذي يعيش فيه الأفراد، وإنما أصبح ميدانا شبيكيا متعدد المواقع. كما أن الملاحظة بالمشاركة الأداة الرئيسية للبحث الإثنوغرافي، أخذت أشكالا أخرى، وأصبح الإثنوغرافي يراقب ويشترك بمبوثيه من خلف شاشة الكمبيوتر. وبهذا تأثرت بيئة البحث، وتأثر السياق الذي تدور فيه المجريات والأحداث. لقد أدى انتقال الإثنوغرافيا إلى العالم الافتراضي إلى خلق العديد من التساؤلات والمخاوف لدى الباحثين في هذا المجال، وأصبح التساؤل قائما حول كفاءات إجراء البحوث، وما الذي يتم تضمينه، وما الذي يتم تفاديه، وطرح العديد من القضايا والمسائل المنهجية والأخلاقية بهذا الشأن، كمسألة السياق ومسألة موقع وميدان البحث.

وعلى هذا يطرح هذا المقال تساؤلا رئيسيا: كيف انتقلت الإثنوغرافيا من العالم الطبيعي الحقيقي

إلى العالم الافتراضي؟ ما هي نتائج هذا الانتقال؟ كما يطرح جملة من التساؤلات الفرعية حول

الإثنوغرافيا في عالمها الواقعي: فما هي وما طبيعتها؟ وما هي الخطوات اللازمة لإنجاز البحث الإثنوغرافي؟ وجملة من التساؤلات تخص الإثنوغرافيا الافتراضية: ما طبيعة ميدانها وما هي خصوصياتها؟ وهل يكتفي الإثنوغرافي بدراسة العالم متصلا بالانترنت فقط، أم يتم تضمين العالم خارجها أيضا؟ وكيف تأثر سياق البحث الإثنوغرافي في العالم الافتراضي؟

بناء على ما سبق يهدف هذا المقال إلى إلقاء الضوء على الإثنوغرافيا في بيئتها وعالمها الطبيعي الواقعي، وعلى خطوات إنجازها، مبينا كيفية انتقالها إلى العالم الافتراضي ونتائج هذا الانتقال، من خلال استعراض مفهوم الإثنوغرافيا الافتراضية، تاريخ ظهورها وتطورها، وموضوعها وميدانها. بالإضافة إلى طرح مسألة السياق، وآراء الباحثين للخروج من الإشكاليات البحثية المطروحة بهذا الشأن.

1. الإثنوغرافيا في العالم الواقعي

1.1 تعريف الإثنوغرافيا:

الإثنوغرافيا هي وصف تحليلي للمشاهد الاجتماعية والأفراد والجماعات، بشكل يؤدي إلى فهم مشاعرهم ومعتقداتهم وممارساتهم، كما أنها دراسة الاستراتيجيات التفاعلية في الحياة الإنسانية؛ فاستراتيجيات جمع البيانات المستخدمة تؤدي للحصول على تصورات واضحة لمعتقدات الأفراد والجماعات وسلوكياتهم في المواقف والبيئات المختلفة. ويركز الباحثون الذين يستخدمون المنهج الإثنوغرافي على دراسة الثقافة أو الحضارة لدى جماعة معينة، حيث يكون هدفهم منصبا على وصف طريقة الحياة من خلال توثيق المعاني المرتبطة بالأحداث المختلفة، وإظهار التكامل فيما بينها. (سيد سليمان، 2014، ص 48).

إن الإثنوغرافيا هي في الوقت نفسه طريقة بحث ونتيجة مكتوبة لتحليل بيانات البحوث الكيفية والميدانية. فقد وصفها علماء الأنثروبولوجيا وباحثون في العالم الافتراضي أمثال "بوني ناردي"، "سيليا بيرس" و"تايلور" بأنها مرنة، وأنها منهجية متجاوبة وحساسة للظواهر الناشئة ولأسئلة البحث الطارئة، والتي تستخدم لخلق فهم للسلوك الثقافي. (Haverinen, 2015, p79)

وتعتبر الإثنوغرافيا كأنها الجزء الوصفي للإثنولوجيا؛ هاته الأخيرة التي تعني علم الجماعات والثقافات الإثنية. وتتمثل الإثنوغرافيا في الملاحظة وتحليل الجماعات الإنسانية بخصوصيتها قصد استرجاع - قدر الإمكان - حياة كل منها؛ فهي تركز على الوصف الدقيق للجماعات الاجتماعية. ويستخدم هذا المنهج مجموعة من التقنيات كالتحليل اللغوي، التحليل النفسي، الدراسات الإحصائية وكذلك المناهج التاريخية لوصف مجموع المركبات الثقافية وذلك بالتركيز خاصة على الثقافات العرقية. فالإثنوغرافيا تهدف إلى بحث جماعة اجتماعية معينة لأكبر عدد من الناس - قدر الإمكان - في نطاق معين وفي أوقات محددة. (لارامي وفالي، 2009، ص 253)

وهكذا نجد أن المنهج الإثنوغرافي هو طريقة للدراسات الوصفية للثقافات والأفراد، وأن المقياس الثقافي الإثنوغرافي هو أن الأفراد الذين هم تحت البحث والتحقيق، لديهم مقاييس لأشياء مشتركة تتمثل في:

- المنطقة الجغرافية، وخاصة في البلد الواحد أو الإقليم الواحد.
- الديانات لما لها من تأثير على حركة المجتمع ومؤسساته.
- القبائل كظواهر عشائرية وقبلية، وتأثيرها على حركة المجتمع ومؤسساته.
- التجارب المشتركة. (قنديلجي والسامرائي، 2009، ص 226)
- وتتميز بحوث الإثنوغرافيا بأربع صفات:
- تضع الباحث وسط الموضوع قيد الدراسة، فالباحث يذهب إلى البيانات وليس العكس.
- تؤكد على دراسة القضية أو الموضوع في إطار مرجعية المبحوثين.
- تتضمن قضاء وقت كبير من الوقت في الميدان.
- تستخدم مجموعة متنوعة من تقنيات البحث بما فيها الملاحظة، المقابلة وحفظ المذكرات/اليوميات، تحليل الوثائق المتوفرة، التصوير الفوتوغرافي، تسجيل الفيديو وغيرها... (ويمر ودومينيك، 2013، ص 261)

يقول "جيري فيليبسون" بأن الإثنوغرافيا هي "وصف للأنماط الثقافية الاتصالية الواضحة المعالم للأفراد". (West et Turner, 2000, p 65)

وقد لاحظ أن هذا الوصف يتم الوصول إليه بعد أن يقضي الباحث وقتاً معتبراً يعيش فيه مع الأفراد يلاحظهم ويجمع المعلومات منهم.

إن مهمة الإثنوغرافي - في أبسط صورها - هي الذهاب إلى الميدان، وعن طريق الملاحظة والمقابلة يحاول وصف - وحتماً تفسير - ممارسات المبحوثين في ذلك السياق الثقافي. يقول "هامرلي" و"أنكينسون" في هذا الصدد، أنه لا مفر من الاعتماد على المعرفة وعلى الأساليب المنطقية للتحقيق، فكل البحث الاجتماعي قائم على القدرات البشرية لملاحظة المشاركين. فالباحث باعتباره مشارك نشط في عملية البحث هو أداة البحث بامتياز، وبدلاً من الانخراط في محاولات عقيمة للقضاء على "تأثيرات" الباحث، يجب علينا البدء في محاولة فهمها. (Jensen et Jankowski, 2002, pp 153-154)

ويتطلب البحث الإثنوغرافي جمعاً مكثفاً للبيانات، هذه الأخيرة تخص الكثير من المتغيرات التي قد تمتد لفترة طويلة من الزمن في موقف طبيعي.

وكمثال عن الدراسات الإثنوغرافية المطولة، نجد الدراسة التي قامت بها "ماير"، والتي تعاملت فيها مع عادات مشاهدة التلفزيون من قبل الإناث الميكسيكيات - الأمريكيات، وجاءت بياناتها من دراسة أنثروبولوجية مدتها عامين في سان أنطونيو بولاية تكساس الأمريكية. (ويمر ودومينيك، 2013، ص

(264). وكلمة "موقف طبيعي" تعني أن المتغيرات موضع البحث تدرس في مواضع حدوثها على نحو طبيعي، وليس في بيئات ضبطها الباحث. (سيد سليمان، 2014، ص 49) ويسبب هذه الخاصية كثيرا ما يشار إلى هذا النمط من البحوث بأنه البحث الطبيعي أو البحث الميداني، أو الدراسة الطبيعية. ويفضل بعض الباحثين استخدام لفظ "البحث الكيفي" بشكل أساسي بسبب استخدام الملاحظة بالمشاركة كأسلوب في البحث.

2.1 الإثنوغرافيا كمنهج كفي:

يستخدم مصطلح "البحوث الإثنوغرافية" أحيانا كمرادف للبحوث الكيفية، ولكن البحوث الإثنوغرافية في واقع الأمر هي أحد أنواع البحوث الكيفية، وقد مارسها الأنثروبولوجيون وعلماء الاجتماع؛ حيث كانوا يقضون فترات طويلة يلاحظون ويعايشون ثقافات أخرى، وقد ساعدتهم ذلك الإنغماس في الثقافات الأخرى على تعميق فهمهم لأنماط الحياة في تلك الثقافات، ومؤخرا تم تطويع البحوث الإثنوغرافية لتطبيقها في مجالات أخرى مثل العلوم السياسية والتعليم والعمل الاجتماعي والاتصال، ولكن هذه المجالات لا تهتم بوصف أساليب الحياة في ثقافة بأكملها، ولكنها تهتم بتحليل وحدات أصغر مثل المنظمات والمؤسسات والمهن والجماعات الفرعية وفئات الجمهور المختلفة. (ذو الفقار زغيب، 2009، ص 228).

ولعل المدخل الذي يتبناه "جوبا" في هذا السياق هو المدخل الأكثر ملاءمة؛ فهو يتناول الموضوع على أساس أن الاستقصاء الطبيعي أي الكيفي (إثنوغرافي)، وأن الاستقصاء العقلاني أي الكمي (استقصاء مسيطر عليه ومضبوط). وبينما يفضل الباحثون الطبيعيون الأساليب المنهجية الكيفية كالملاحظة بالمشاركة والمقابلة الشخصية المعمقة، يفضل الباحثون العقلانيون - بدرجة أكبر - استخدام الأساليب المنهجية الكمية كالاختبار العشوائي للمفحوصين وتطبيق أدوات مقننة. (سيد سليمان، 2014، ص 49)

ففي المنهج الإثنوغرافي أدوات جمع البيانات المفضلة هي الملاحظة بالمشاركة والمقابلة؛ فهذا المنهج يستلزم الاقتراب من الأعضاء الفاعلين في البحث، فابتعاد الباحث عن موضوعه في هذه الطريقة هو تناقضي، ووحده تحقيق الألفة مع الفاعلين يسمح للباحث بفهم وتحديد الظاهرة محل الدراسة. (Bonneville et autres, 2007, p164)

وبالنسبة للملاحظة بالمشاركة فكثيرون يجدون أنه من الصعب التفرقة بينها وبين الإثنوغرافيا، فكلاهما يشير إلى حقيقة أن الإثنوغرافي أو الملاحظ يدمج نفسه في مجموعة لمدة طويلة من الزمن لملاحظة السلوك، الاستماع إلى ما يقال في المحاورات سواء بين الآخرين أو بين العاملين في الحقل، وأيضا طرح الأسئلة. (Brym, 2012, p 432)

ومع هذا فيظل مصطلح الإثنوغرافيا أكثر اتساعاً، وبالتالي تصبح الملاحظة بالمشاركة مجرد أداة لجمع البيانات، لا يطبق فيها الملاحظ المشارك إلا الملاحظة، ضمن عملية أوسع وأعمق يترجم فيها الإثنوغرافي ما يلاحظه وما يجمعه من معلومات في تقرير يكتبه آخر العمل. وقد يتطلب البحث ملاحظة بدون مشاركة أو ملاحظة بالمشاركة، أو هما معاً. وتتميز البحوث الإثنوغرافية بقدر من الملاحظة بالمشاركة على المستوى الظاهر، فالإثنوغرافيا تمثل بحثاً متعددة الأدوات، ذلك أن الباحث الإثنوغرافي يستخدم استراتيجيات منوعة إلى جانب الملاحظة. فالملاحظة المبدئية بالمشاركة توفر بيانات توجه الباحث في اختيار مداخل أخرى مناسبة، وتصنف هذه المداخل الممكنة إلى ما هو لفظي وما هو غير لفظي (سيد سليمان، 2014، ص50) كما تعد المقابلات الإثنوغرافية شكلاً غير رسمي من المقابلات، ويطلق عليها أحياناً "المحادثات الموقفية" وتحدث في الميدان، وتقوم على مهارة الباحث وقدرته على استغلال الموقف والانتباه إلى المفاتيح الموقفية فهو على الرغم من وضعه بعض الأسئلة العامة في ذهنه قبل النزول إلى الميدان، إلا أن الموقف قد يثير تساؤلات جديدة (ذو الفقار زغيب، 2009، ص229).

3.1 خطوات إجراء البحوث الإثنوغرافية :

قدم "لوكومبت" و"شينسول" طريقة إجراء البحوث الإثنوغرافية خطوة بخطوة، وتتشابه هذه الخطوات في الجزء الأعظم منها مع بقية الأدوات الكيفية: الخطوة الأولى: تتعلق بتعريف المشكلة أو الظاهرة محل الدراسة، وتعد الأسئلة الأكثر ملاءمة للبحوث الإثنوغرافية هي تلك التي تتناول كيفية إدراك أفراد ثقافة معينة للظاهرة محل الدراسة. الخطوة الثانية: وتخص اختيار مكان إجراء الدراسة، أي المكان الذي سيتم فيه جمع البيانات. (ذو الفقار زغيب، 2009، ص 230)

ويغض النظر عن كيفية تحديد الموقع، يجب على الباحث بعدها الحصول على منفذ (الدخول) وتقرير ما الذي سيدرسه. وكما هو الحال عموماً مع البحوث الميدانية، فإن الباحث سيستخدم بشكل عام التعيين القسدي والهادف. ويمكن صقل هذا التعيين باستخدام الرواة الرئيسيين، وهم الأعضاء - منذ مدة طويلة- في المجموعة قيد الدراسة، الذين لديهم معرفة بإجراءات المجموعة، ونشاطاتها وأنماط اتصالاتها. وباستخدام المعرفة التي يقدمها الرواة يقرر الباحث ما هي السلوكيات التي سيراقبها، ومتى وأين سيراقبها، وأي الأفراد سيختار للمقابلات المكثفة، وأي الوثائق الرئيسية يمكن أن تكون ذات صلة لتحليلها (ويمر ودومينيك، 2013، ص 262)

الخطوة الثالثة: تتمثل في بدء العمل الميداني، وفي هذه المرحلة يكون على الباحثين تسجيل أربعة أنواع من الملاحظات الميدانية وهي:

1- الملاحظات المركزة: هي عبارة عن وصف مكتوب أو مسجل يركز على أهم العوامل التي

تمت ملاحظتها.

2-الملاحظات الممتدة: نكتب بعد إتمام عملية الملاحظة أو بعد المقابلات، وتقوم على إضافة التفاصيل التي لم تتضمنها الملاحظات المركزة، ويجب أن تكون هذه الملاحظات كاملة وشاملة كلما أمكن.

3-صحيفة العمل الميداني: تتضمن ردود الأفعال الشخصية للباحث، وانطباعاته حول العمل الميداني أو المقابلات.

4-الملاحظات التحليلية والتفسيرية: هي محاولات من قبل الباحث لتجميع الملاحظات في بناء تحليلي متماسك، وهي بمثابة المحاولات الأولى لاستكشاف الأنماط والعلاقات الموجودة في البيانات. (ذو الفقار زغيب، 2009، ص ص 230-231)

الخطوة الرابعة: وتتعلق بتحليل البيانات، وهي تتبع الخطوات ذاتها كما في بقية الأدوات الكيفية؛ فالباحث يبحث عن النماذج والأفكار العامة في البيانات، ثم يحدد الفئات التحليلية التي تتم مراجعتها مرة أخرى في ضوء البيانات، لئرى ما إذا كانت هذه الفئات تمدنا بتفسيرات متسقة، وفي الوقت ذاته يقوم الباحث بتفسير البيانات ويمدنا ببعض الأسس النظرية لفهم أكثر شمولية لمدرجات وسلوكيات المجموعات محل الدراسة(ذو الفقار زغيب، 2009، ص 231)

الخطوة الخامسة: كما هو الحال في أشكال البحوث الكيفية الأخرى، فإن المرحلة الأخيرة من البحوث الإثنوغرافية تخص إعداد التقرير المكتوب. ويبدأ التقرير عموماً ببيان عن الغرض أو السؤال البحثي الموجه، ووصف للمنهج الذي يتضمن مشاعر الباحث الشخصية حول الموضوع العام. ويكون هذا متبوعاً بالدليل والأمثلة التي توضح المواضيع الرئيسية للبيانات، والتأثيرات المتوقعة للنظرية وللممارسات المستقبلية. وكما هو الحال في تقارير البحوث الكيفية، قد يكون تقرير البحث الإثنوغرافي مسهباً نوعاً ما. (ويمر ودومينيك، 2013، ص 264)

وعموماً لا تختلف خطوات البحث الإثنوغرافي عن بقية خطوات البحوث الكيفية، إلا في بعض المراحل أو التفاصيل التي تميزه دون غيره من البحوث.

2 الإثنوغرافيا في العالم الافتراضي:

1.2 الإثنوغرافيا الافتراضية:

قد لا تبدو الإثنوغرافيا وسيلة واضحة لجمع البيانات عن استخدام الإنترنت، فصورة الإثنوغرافي هو ذلك الشخص الذي يزور المجتمعات والمنظمات، ويبدو أن الإنترنت تتعارض مع ثمار الإثنوغرافيا، في أنها تبدو قطعاً مكان بلا طائل. في الواقع وكما لاحظت "هاين" فإن تصور الإنترنت كمكان - الفضاء الإلكتروني - يمثل استراتيجية واحدة لدراسة إثنوغرافية للإنترنت، ومن هذا فهي مجرد رحلة قصيرة لفحص المجتمعات، في شكل مجتمعات على الإنترنت أو مجتمعات افتراضية. بهذه الطريقة، فإن مفاهيمنا للمكان والفضاء التي تشكل الطريق الذي نعمل فيه في العالم الحقيقي، تتطعم على شبكة

الإنترنت. ومن هنا تطرح مسألة أخرى، فالإثنوغرافيا تستلزم مراقبة المشارك، ولكن في الفضاء الإلكتروني ماذا يراقب الإثنوغرافي وفيما يشارك؟ (Brym, 2012, p 659)

إن الإثنوغرافيا الافتراضية هي تطوير جديد نسبيا في البحوث الكيفية، فأسلوب الإثنوغرافي التقليدي ينطوي على انغماس الباحثين في الوضع والظروف والحياة اليومية لمن يدرسونهم، وتمدد الإثنوغرافيا الافتراضية هذه الأساليب إلى فضاء الإنترنت، وتشمل طائفة من التقنيات المتنوعة. (ويمر ودومينيك، 2013، ص 264)

إن الإثنوغرافيا الافتراضية كمنهجية بحثية تمثل خطوة لإعادة تصور مفهوم "المجال" التقليدي كما اعتمده علماء الإثنوغرافيا، وتنقله إلى مستوى آخر خاص. ففي الفضاء الافتراضي حدود المجال الملاحظ افتراضية وخالية من التوقع في المكان أو الجغرافيا. فكلما أجرى الأفراد المزيد من الأنشطة عبر الإنترنت، وتركوا بصمات رقمية (الصور، المدونات، رسائل البريد الإلكتروني)، تمكن الباحثون من دراسة السلوك الإنساني في الفضاء الافتراضي. فالإثنوغرافيون الافتراضيون يشاركون ويلاحظون المدونات ومواقع الويب وغرف الدردشة، ويحللون كيف يشكل الناس على شبكات التواصل الاجتماعي أو مجموعات الإنترنت هوياتهم الثقافية. (Browne, 2010, p 95)

لقد أصبح البحث الإثنوغرافي حول الاتصالات والممارسات على الخط وخارج الخط¹ والمتشكل عن طريق الرقمنة، أكثر شعبية في السنوات الأخيرة مع تزايد نفوذ الإنترنت ووجودها في الحياة اليومية للناس.

وكمثال على ذلك دراسة عالمة الاجتماع "شيرلي توركلي" التي أسست عملها الأسطوري "الحياة على الشاشة الشاشة: الهوية في عصر الإنترنت" سنة 1994، حيث قامت بتحليل كيفية تأثير الحياة على الشاشة على مفاهيم مثل الهوية، لعب الهوية، المجتمع والجنس. في نفس العام نشر عالم الأنثروبولوجيا "أرتيرو إسكوبار" مقالته "مرحبا بكم في السبيريانية: ملاحظات على أنثروبولوجيا الثقافة السبيريانية"، والتي طرح فيها عدة أسئلة مهمة - ذات صلة حتى بعد عشرين عاما - حول دراسة الثقافات السبيريانية (Haverinen, 2015, p81)

يأخذ هذا البحث عدداً لا يحصى من الأشكال، ويظهر ضمن تخصصات مختلفة وتحت العديد من التسميات المختلفة مثل "الإثنوغرافيا الرقمية"، "الإثنوغرافيا الإلكترونية"، "الخطاب الإثنوغرافي المركز على الخط"، "إثنوغرافيا الإنترنت"، "الإثنوغرافيا على الإنترنت"، "إثنوغرافيا الفضاءات الرقمية"، "البحوث الإثنوغرافية على الإنترنت" و"الإثنوغرافيا المتعلقة بالإنترنت". (Varis, 2014, pp 1-2)

فمن المناهج التي ارتبطت بالرؤية النشطة لمستخدمي الإنترنت الإثنوغرافيا الافتراضية أو الرقمية، في هذا الإطار وفي فضاء الإعلام الجديد، تتمثل أدوات الدراسة الإثنوغرافية الافتراضية في

¹ على الخط: أي متصل عبر الإنترنت، خارج الخط: أي غير متصل بالإنترنت

المقابلات الإلكترونية مع المستخدمين المشاركين، أو الملاحظة بالمشاركة أو غير المشاركة، كما تجرى مقابلات جماعية متعمقة باستخدام الرسائل المباشرة الفورية للرد على تساؤلات الإثنوغرافيين المشاركين، أو يتم تحليل البريد الإلكتروني والصور والرسوم ولغة الجسد ونبرة الصوت وتعبيرات الوجه، أو تحليل طرق استخدام المشاركين لكاميرات الويب أو الفيديو. (أحمد بدوي، 2015، ص167)

على سبيل المثال إن نشاط الفرد على شاشة الكمبيوتر يمكن أن يسجل بالعديد من تطبيقات الفيديو المختلفة، والتي يمكن بعد ذلك ملاحظتها وتحليلها نقرة بنقرة. ويمكن استخدام هذه التطبيقات من قبل الإثنوغرافيين أنفسهم، أو يمكن أن تكون مثبتة على أجهزة الكمبيوتر من قبل المخبرين، وهي تعطي فرصة للباحث فيما بعد بدراسة استخدامهم للويب. كما أن هناك طريقة أخرى شائعة لجمع البيانات، هي أخذ لقطات (كاملة أو جزء من الشاشة)، والتي تتعلق بشكل مباشر بأخذ الصور في سياقات عدم الاتصال بالإنترنت أو وضعية خارج الخط. (Haverinen, 2015, p84).

إن القاسم المشترك لهذه الدراسات هو أنها تشمل جميعها نوعاً من البيانات على الخط (عبر الإنترنت)، وكلها توظف (نسخة أو فهم معين) الإثنوغرافيا في عملية البحث، وهنا تنتهي أساساً القواسم المشتركة. إذن المجال متنوع - إذا كان من الممكن حتى تحديد هذا المجال بوضوح - في البحوث الإثنوغرافية حول الثقافة والممارسات الرقمية. وهذا ليس أقلها، بسبب الأنواع المختلفة من البيانات والبيئات التي تغطيها الأبحاث حول الاتصالات الرقمية كمواقع الشبكات الاجتماعية، المدونات، المنتديات، بيئات الألعاب، المواقع الإلكترونية، مواقع المواعدة، مواقع الويكي وغيرها، ولكن أيضاً بسبب الفهم المتباين لما تبدو عليه "الإثنوغرافيا"، والتي تتراوح من اقتصرها على تقنيات محددة أو طرق معينة لجمع البيانات (الملاحظة والمقابلة بشكل أساسي)، إلى رؤيتها كمنهج وليس مجموعة من التقنيات. (Varis, 2014, p 2)

توفر الإنترنت إذن الأدوات والموارد وبيئات البحث كوسيلة لإجراء الإثنوغرافيا، بعبارة أخرى يمكن دراسة الإنترنت على الإنترنت بطريقة إثنوغرافية، على الخط أو خارج الخط أو مع مزيج من كلاهما، بالاعتماد على أسئلة البحث والموضوع الفعلي نفسه.

فشبكة الإنترنت كما نعرفها هي خليط معقد من التقنيات والتطبيقات، مع عدد لا متناهي من الإمكانيات تتراوح ما بين العمل إلى أنشطة وقت الفراغ، من المراقبة إلى الفوضى، من الخيال إلى الحقيقة. فكتكنولوجيا تعرف الإنترنت أيضاً باسم الويب، فهي شبكة من أجهزة الكمبيوتر المترابطة، تربط الناس (والأشياء) على مستوى العالم. (Haverinen, 2015, p80)

إن الموقع المركزي الذي تحتله الإنترنت اليوم في عالمنا، لا يمكن فهمه إلا بربطه بالتطورات التكنولوجية الراهنة، التي تعلن عن تحولات عميقة وجذرية في المجتمع والثقافة والحضارة. إذ تتميز هذه التطورات التي تتحقق وفق نسق متسارع وبكثافة لم تعرفها الإنسانية من قبل، بالخصائص التالي:

- الشمولية: لأنها تمس كافة جوانب الحياة.

- السرعة: فسرعة التطور التكنولوجي الحالي شديدة الخصوصية، بمعنى أنها تختلف جذريا عن تلك التي ميزت التراكمات التقنية عبر التاريخ.

- العالمية: إن التطورات التكنولوجية الراهنة لا تمس المجتمعات الصناعية المتقدمة فحسب، فهي تخترق كافة المجتمعات في نفس الوقت، بالرغم من تفاوت تجدرها وتأثيرها. (الحمامي، 1998، ص 54)

2.2 ظهور وتطور الإثنوغرافيا الافتراضية:

تعتمد الإثنوغرافيا الرقمية كمنهج بالطبع على الإثنوغرافيا "ما قبل الرقمية". إن الإثنوغرافيا مع جذورها في الأنثروبولوجيا تأخذ موضوع اهتمامها من الواقع الذي يعيشه الناس. والذي تهدف من خلاله إلى إنتاج حسابات مفصلة و متمركزة، أي على حد تعبير "جيرتر" تقدم "أوصافا سميكة أو كثيفة".
(Wittel, 2000, <http://www.qualitative-research.net/fqs/>)
خلال السنوات الخمس عشرة الماضية، تم نشر العديد من الكتيبات والمقالات عن إثنوغرافيا الإنترنت كطريقة بحث، وتم دمجها في تشكيل المصطلحات المستخدمة في البحث. لقد كانت الأنثروبولوجيا مسؤولة عن خلق الإثنوغرافيا كطريقة بحث، ولكن في وقت لاحق تم نشر الإثنوغرافيا على نطاق واسع عبر العديد من العلوم الاجتماعية. يقول عالم الأنثروبولوجيا "تيم إنجولد" أن الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا لا ينبغي استخدامهما بشكل مترادف لأن الإثنوغرافيا تشير إلى إطار معرفي وإلى أهداف مختلفة.

في السنوات الأخيرة اكتسبت إثنوغرافيا الإنترنت نفوذا لا سيما من علم الاجتماع، ومن ميدان معترف به حاليًا مثل العلوم الإنسانية الرقمية، والتي تجمع بين الأهداف الإنسانية وأسئلة البحث (في كثير من الأحيان بيانات أيضا) وعلوم الكمبيوتر مثل البرمجة. (Haverinen, 2015, p80)
لقد جاء البحث في الاتصالات بواسطة الوسائط التكنولوجية عن بعد من خلال ما وصفه "أندروتسبولوس" بأنه "الموجة الأولى"، حيث كان التركيز على الميزات والاستراتيجيات (يفترض أنها) الخاصة بالإعلام الجديد؛ وقد أعطيت تأثيرات تكنولوجيات الاتصال على اللغة الأولوية عن العوامل السياقية الأخرى. في هذه الدراسة المبكرة كما أشار "أندروتسبولوس" كانت البيانات تجمع في الغالب عشوائياً ومنفصلة عن سياقاتها المنطقية والاجتماعية، والتعميمات كانت تنظم حول الفروق المتعلقة بوسائل الإعلام مثل لغة رسائل البريد الإلكتروني ومجموعات الأخبار وما إلى ذلك، وكان التركيز بالتالي على المنتجات النهائية المعدلة والنصوص والقطع اللغوية، بدلا من إنتاج واستعاب الخطاب كمنشأ ذو مغزى اجتماعي ونوع محدد. (Varis, 2014, p 3)

لقد كتب عالم الاجتماع "باري ويلمان" عن تطور دراسات الانترنت، في كل من بدايات الألفينيتين وما بعدها. في نسخة محدثة من نفس المقال في أوائل عام 2010، قال أن هناك ثلاث موجات من التطور يمكن التعرف عليها خلال العقود الماضية (نحن الآن ندخل الموجة الرابعة) وكما هو

الحال مع جميع المؤرخين، فإن التواريخ ليست ثابتة بالمطلق. بدلا من ذلك، فالعديد من التطورات تتداخل مع بعضها البعض، وبعضها أعاد إلهام الباحثين بعد عدة سنوات من نشرها الأولي.
(Haverinen, 2015, p80)

المرحلة 1: وفقا لويلمان " فهي تمتد بين أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات (حوالي 1989-1994)، ركز الباحثون فيها في المقام الأول على تحليل النصوص الأولى على أساس عوالم افتراضية (المعروفة باسم MOOs وMUDs) والبرامج التعاونية (أي البرامج الجماعية، البرامج المصممة لتسهيل العمل الجماعي الذي يقوم به عدد من المستخدمين المختلفين). فتكنولوجيا الإنترنت كانت تعتمد على النص، والمزيد من التطبيقات المرئية والمتصفحات. خلال تلك الفترة الزمنية، كانت اهتمامات الباحثين منصبية بشكل خاص على صياغة المجتمعات (ثقافية ومؤسسية) وتوزيع المعلومات المتصلة، والتي تم تمكينها بواسطة هذا النموذج الجديد من الوسائط.

المرحلة 2: من عام 1995 حتى مطلع الـ2000، أصبح الاستخدام الخاص للإنترنت يتزايد تجاريا وشعبيا، ركزت الدراسات على المستخدمين (كيف ولماذا تستخدم الإنترنت في ظروف مختلفة)، كما حاولت توثيق طبيعة الانترنت (ما هي الانترنت حقا؟).

المرحلة 3: شملت السنوات من عام 2000 حتى 2006. والتي مثلت السنوات الأولى من تطبيقات الوسائط الاجتماعية، وتميزت بتزايد تعميم بيانات الألعاب الجماعية متعددة المستخدمين على الخط. لاحظ "ويلمان" أن نماذج البحث تحولت من توثيق البيانات إلى التحليل، منذ أن أصبحت شبكة الإنترنت الأداة المساعدة للجماهير. خلال هذه الفترة الزمنية، بدأ الباحثون أيضا بالإشارة إلى إثنوغرافيا الإنترنت على أنها رقمية، بشكل صارم ماديا وبهدف خارج الخط. في نفس الوقت تم صياغة مصطلح الإثنوغرافيا الافتراضية، مع التأكيد على بحث الظواهر والثقافات في البيئات على الخط، وفي معارضة للبيئات "الحقيقية"، التي كانت في ذلك الوقت تعني "ما حدث على الخط".

المرحلة 4: امتدت من 2007 إلى 2015 أين توسعت الدراسات الأكاديمية لتشمل التكنولوجيات الجديدة التي ظهرت، مثل تكنولوجيا الهواتف الذكية والأجهزة اللوحية، وكذلك تطبيقات وسائل الإعلام الاجتماعية وحتى البيانات الكبيرة. في ذلك الوقت كانت مصطلحات مثل افتراضي، الإلكتروني، علم الإثنوغرافيا الإلكترونية تشير إلى نماذج منذ 1990، والعلماء في هذا المجال يستخدمون الآن مصطلحات مثل على الخط، افتراضية أو الإثنوغرافيا الرقمية، للإشارة إلى الاختلاف في المواقع الميدانية والمقاربات النظرية. من ناحية أخرى تستخدم الإثنوغرافيا الرقمية في السياقات، أين يحلل الباحثون كيف تؤثر الظواهر خارج الخط بسهولة على الاستخدام على الخط كما هو الحال في الحركات السياسية. حيث يقوم الباحثون بتحليل البيئات على الخط، مثل تطبيقات الوسائط الاجتماعية، منتديات المناقشة وموارد وسائل الإعلام، وغيرها من المواد على الخط، مع مقارنة سياقية غنية، وبهدف تحليل ماذا ولماذا يحدث شيء ما في عالم الإنترنت على الخط. (Haverinen, 2015, pp 80-81)

هذا وتجدر الإشارة أن هذا التطور لم يتوقف وقد استمر الباحثون في الغوص في هذا المجال مع تطور الممارسات على شبكة الإنترنت خاصة مع شبكات التواصل الاجتماعي التي حظيت بالعديد من البحوث في هذا المجال.

3.2 موضوع ومجال الإثنوغرافيا الافتراضية :

أين يمكن دراسة الإنترنت إثنوغرافيا؟ سؤال طرحه العديد من الباحثين لفهم مواضيع ومحتويات الطريقة الجديدة في البحث. فمنذ أصبحت تقنيات الإنترنت على نحو متزايد في كل مكان، أصبح الموقع الإثنوغرافي موضوعا لمناقشات كبيرة. فبعض الباحثين يركز على دراسة الإنترنت على الخط، خارج الخط أو مزيج بين وجهتي النظر، والتي تتوقف على الأسئلة التي يطرحها الباحث والوضعيات، مع احترام كيفية تشكل الإثنوغرافيات. مفهوم "الحقل أو الميدان" تمت مناقشته على نطاق واسع لا سيما منذ التسعينيات، عندما قدم "جورج إي. ماركوس" 1995 فكرة "الميدان متعدد المواقع" في المناقشة العامة، التي كانت تدور بالفعل حول فكرة الإنعكاسية والإثنوغرافية الذاتية للباحث. كما أشار "ماركوس" أنه في العولمة والعالم العابر للحدود والمتغير، العالم الإثنوغرافي يجب أن يعدل ليقدم بيانا عن حياة الناس، والتي ليست في كثير من الحالات ملزمة بالحدود بشدة (غير مرئية أو مرئية). ومع ذلك، تم انتقاد الإثنوغرافيا متعددة المواقع على أنها غير هادفة وغير مركزة وسطحية. (Haverinen, 2015, pp 81- 82)

إن البحث الإثنوغرافي في الشبكة وحول الشبكة يتطلب عناية بمناطقها وأجزائها المراد تضمينها، وأيها التي سيتم تضمينها جزئياً وأيها يستبعد، فضرورة تحديد مجال البحث مكانيا هو شيء ليس بالجديد. فمجالات البحث الكلاسيكي أيضا كان لا بد من بنائها، ومع ذلك تم تسهيل بنائها من خلال حقيقة أن المجالات من المفترض أن تكون لها حدود سابقة الإنشاء -على أي حال- جغرافية أو اجتماعية أو ثقافية. الشبكات في المقابل لا حصر لها، فهي هياكل مفتوحة وديناميكية للغاية. فمن خلال رسم الحدود، فإن الإثنوغرافي يشارك بفعالية وبوعي في بناء الأمكنة (الفضاءات) وفي تحديد نطاق الاختلافات. في هذا الصدد فإن تأطير الشبكة للبحث، لا يهيكل فقط نتائج واستنتاجات أي تحقيق إثنوغرافي، ولكن التأطير يصبح أيضا ممارسة. (Wittel, 2000, <http://www.qualitative-research.net/fqs/>)

توفر الإثنوغرافيا على الانترنت إمكانيات بالفعل للجمع بين كل من الرقمية والتناظرية بطريقة مماثلة لتلك الخاصة بالمستخدمين. لقد ناقش عالما الأنثروبولوجيا "جون بوستيل" و"سارة بينك" أهمية صنع المكان في الدراسات الإثنوغرافية، أين توفر أمكنة البحث، أي العالم خارج الخط، السياقات الهامة في بعض الحالات البحثية، أين يكون الاتصال على الخط (عبر الإنترنت) وخارج الخط في حالة دائمة من توفير وتبادل المعلومات. (Haverinen, 2015, p 83)

حاليا يمكننا أن نرى استراتيجيتين لتحديث الإثنوغرافيا خارج تقليد العمل الميداني في منطقة محددة جغرافيا مع حدود واضحة:

الإستراتيجية الأولى: تقترح "بحثا مدمجا ذاتيا في نظام عالمي"، ينتقل من المواقع الفردية والمواقف المحلية، إلى فحص تداول المعاني الثقافية، الأشياء، والهويات المنتشرة في الفضاء الزمني. ترتبط هذه المقاربة ارتباطا وثيقا باقتراحات لإعادة تعريف فكرة المجال (الميدان)، في إشارة إلى عمل "أباديري" الذي يشير إلى فكرة لامركزية المجال، بدلاً من استخدام المجال للتعبير عن المكان إلى "هنا" و"في مكان آخر"، المجال يجب أن يتصور على أنه "موقع سياسي".

فمرة أخرى ترتبط اقتراحات "كاستلز" ارتباطا وثيقا - بالاعتماد على كتابه "مجتمع الشبكات" - بالابتعاد عن دراسة المجال نحو إثنوغرافيا الشبكات. فعلى عكس الحقل، فإن الشبكة هي بنية مفتوحة، قادرة على التوسع دون حدود وديناميكية للغاية. والأهم من ذلك أن الشبكة لا تتكون فقط من مجموعة من العقد، ولكن أيضاً من مجموعة من الصلات والروابط بين العقد.

الاستراتيجية الثانية للتغلب على المفهوم التقليدي للعمل الميداني - أقل تنظيراً، على الرغم من أنها تستند إلى مجموعة من الأبحاث سريعة النمو، فهي تحول من المساحات المادية إلى ما يسمى "الفضاء السيبراني". فقد كان نمو الإنترنت واحد من أعظم الظواهر الثقافية في عصرنا، مما يؤثر على جميع مجالات الحياة تقريباً. لذلك ليس من المستغرب أن هناك مجموعة متزايدة ومتسارعة من العمل الإثنوغرافي الذي يدرس الاتصال والتفاعل على الخط "عبر الإنترنت"، ولكن أيضاً المساحات المتصلة عالية الوساطة والتفاعلية: المدن الافتراضية، الجامعات الافتراضية، منظمات الرعاية الافتراضية، المنظمات الافتراضية، بيئات اتخاذ القرارات الافتراضية، التطبيق عن بعد، التسوق عن بعد، السوق الافتراضية، بيئات الواقع الافتراضي، الأسر الافتراضية.

(Wittel, 2000, <http://www.qualitative-research.net/fqs/>)

وعموماً هناك أربعة أنواع من الدراسات الإثنوغرافية للتفاعل على الخط:

النوع 1. دراسة التفاعل على الخط فقط دون مشاركة

الدراسات التي تستلزم عادة فقط فحص المدونات ومجموعات النقاش وقوائم البريد الإلكتروني وما إلى ذلك، دون أي مشاركة أو تدخل من جانب الباحث (الباحثين)، عادة يأخذ شكل "الترصّد" وإجراء تحليل دون أن يدرك مؤلفو المواد وجود الباحث.

النوع 2. دراسة التفاعل على الخط فقط مع بعض المشاركة

الدراسات التي تستلزم عادة فحص المدونات، مجموعات النقاش، قوائم البريد الإلكتروني وغيرها، ولكن مع بعض المشاركة أو التدخل من جانب الباحث (الباحثين). هذا الأخير ليس سلبياً، ويتدخل بدلاً من ذلك (علناً أو سراً) في المنشورات والمناقشات الجارية عبر الإنترنت.

النوع 3. دراسة التفاعل على الخط بالإضافة إلى المقابلات على الخط أو خارج الخط

هذا النوع مثل النوع 2، ولكن بالإضافة إلى ذلك يقابل الباحث بعض الأشخاص المشاركين في التفاعل على الخط، المقابلات قد تكون على الخط أو خارجه.

النوع 4. دراسة التفاعل على الخط بالإضافة إلى طرق البحث خارج الخط (بالإضافة إلى المقابلات على الخط أو خارج الخط)

هذا النوع مثل النوع 3، ولكن بالإضافة إلى ذلك هناك مشاركة نشطة للباحث (الباحثين) في العالم خارج الخط لأولئك الذين تجري دراستهم مثل حضور التجمعات وكذلك المقابلات (التي قد تكون على الخط أو خارج الخط). (Brym, 2012, p 663)

وهناك العديد من الدراسات في هذا الشأن مثل تلك التي قامت بها "بورتري" حول مدونات الفتيات المراهقات، ودراسة "بولستورف" التي استغرقت سنتين عن الموقع الافتراضي "الحياة الثانية"، مستخدما في دراسته تجسيدا عاش مع سكان المجتمع الافتراضي، ورتبته بالطريقة نفسها التي قد يقوم بها عالم أنثروبولوجيا، عند دراسته لثقافة ما في العالم الحقيقي. (ويمر ودومينيك، 2013، ص 266)

كما قام "ماركوسيا" عام 2001 ببحث حول "جماعة على الخط"، وكان الهدف هو التعرف على التظاهرات اللغوية، والتي تم من خلالها تكوين تجمع بشري ضمن هذه الجماعة. وقد حاول التعرف على السلوكيات الاتصالية لهذه الجماعة الافتراضية، من خلال ملاحظة منتديات المناقشة لمدة 3 سنوات، وهذا من خلال دراسة عينة مكونة من 200 رسالة تبادلها أعضاء المجموعة. (Bonnevillie et autres, 2007, p166)

ويشكل عام في الدراسات الإثنوغرافية على الإنترنت قد يطلب من العينة المستهدفة من

المشاركين:

- الاحتفاظ بيومياتهم على الإنترنت، بما يتضمن أفكارهم وسلوكياتهم فيما يتعلق بغرض الدراسة.
- التقاط صور ذات علاقة بالدراسة، وتحميلها (على الحاسوب) ليقوم الباحثون بتحليلها.
- المشاركة في المقابلات المكثفة على الإنترنت معتمدة على مضمون يومياتهم وصورهم.
- تزويد الباحث بجولة افتراضية في محيطهم عبر كاميرا الويب.

كما أن هناك أسلوب إثنوغرافي آخر عبر الإنترنت هو "الانغمار/ الانغماس" وهو سلسلة من التمارين والاختبارات الإسقاطية تعطي الباحثين لمحة عن حياة الأشخاص الذين يقومون بدراساتهم. (ويمر ودومينيك، 2013، ص ص 264-265)

لقد لاحظت كل من "هاين" و"قارسيا" أن هناك ميل متزايد وحاجة من الإثنوغرافيين عبر الإنترنت لتأخذ في الاعتبار العالم خارج الخط، لأنه حتى مستخدم الإنترنت الأكثر التزاماً لديه حياة وراء الكمبيوتر. هذا التطور يعني أنه لا بد من الأخذ في الاعتبار كيف أن أعضاء المجتمعات عبر الإنترنت، الذين يميلون إلى أن يكونوا محور الدراسات الإثنوغرافية لديهم حياة خارج الخط، وأن الاثنين سيكون لهما آثار على الطرف الآخر. هناك نتيجة مباشرة لهذه الملاحظة، ذلك أن الإنترنت أصبحت بشكل متزايد

جزءاً لا يتجزأ في حياة الناس والممارسين لما يمكن التفكير فيه مثل الإثنوغرافيا التقليدية (بمعنى الدراسة الإثنوغرافية للحياة غير الافتراضية والمجتمعات) سوف تأخذ في الاعتبار -على نحو متزايد- التزامات الأفراد إلى الحياة على شبكة الإنترنت. فالإثنوغرافيات الأولى على الخط في وقت سابق اتجهت إلى التأكيد على مشاركة الناس واندماجهم في عوالم الإنترنت، وإلى الاستبعاد النسبي للعالم خارج الخط. (Brym, 2012, p 662)

في هذا الصدد أجرت عالمة الأعراق "لورا هيرفي" بحثها على السيخ في فنلندا وشمال كاليفورنيا، على الإنترنت (متصلة) وخارج الإنترنت (غير متصلة). وأشارت أنه خلال عملية البحث، تم تشكيل المجال بواسطة الناس، ممارساتهم المادية ومواقعهم الاجتماعية. كما استخدمت أيضا الفايبروك للاتصال بالمخبرين عبر طريقة منهجية كرة الثلج، فمجتمع السيخ في فنلندا صغير وفرص الاصطدام بهم كانت أقل احتمالاً مما كانت عليه في موقعها الميداني في كاليفورنيا. وأجرت "هيرفي" أيضاً بعض مقابلاتها عبر البريد الإلكتروني، لأن المخبرين لم يكونوا متاحين دائماً شخصياً. لقد كان مجالها متعدد المواقع سواء من الناحية الجغرافية، أو من ناحية التواجد عبر الخط أي الاتصال بالإنترنت أو التواجد خارجه. (Haverinen, 2015, p 83)

لقد قام مؤلفون أمثال "ليندر" و"ماك كيم" 2003، وفيما بعد "هاين" 2007 بتطوير مفهوم "الاتنوغرافيا الضامة" لمعالجة مسألة دمج البحوث عبر الخط وخارج الخط. كما تبنى "فيلدز" و"كافي" 2008 فكرة الإثنوغرافيا الضامة للتركيز على كيفية انتشار خبرة الألعاب عبر شبكة من الشباب في نادي ما بعد المدرسة، حيث يشاركون في وقت واحد في بيئة افتراضية متعددة اللاعبين، باستخدام الملاحظة بالمشاركة على الخط وخارج الخط، المقابلات وتسجيلات الفيديو، وجمع بيانات التفاعل الاجتماعي على الخط وخارجه. فالإثنوغرافيا الضامة ليست متعلقة فقط بخطط الطرق والجمع بين الاستراتيجيات عبر الإنترنت وغير المتصلة بالإنترنت، ولكن أيضاً لبناء الموقع الميداني كشبكة غير متجانسة، تتشكل من العلاقات الاجتماعية للمشاركين وصلاتهم بالأشياء المادية والرقمية والمواقع المادية أو الافتراضية. (Ardevol et Gomez, 2013,

<https://doi.org/10.1002/9781444361506.wbiems193>.)

إن دراسة البيئة على الإنترنت (على الخط) لها مميزاتها الخاصة، والإثنوغرافيا الافتراضية كانت طريقة واحدة لوصف إيستمولوجيا المقاربة. فمصطلح "افتراضي"، كشيء أقل واقعية، لا ينبغي أن يستخدم كنقيض لمصطلح حقيقي (ولا حقيقة)، والذي هو وفقاً لعلماء الأنثروبولوجيا "هيدر هورست" و"دانيل ميلر" جلب للثقافة ما قبل الرقمية كموقع للاحتفاظ بالأصالة. أما عالمة الاجتماع "كريستين هاين" فقد استخدمت مصطلح "افتراضي" في منشوراتها السابقة (الإثنوغرافيا الافتراضية، الأساليب الافتراضية) لكنها حالياً صاغت فكرة إثنوغرافيا الإنترنت. "تقول هاين" بأن الإثنوغرافيا هي أولاً وقبل كل شيء أداة لتحليل وجمع البيانات مما - تسميه - E الثلاثة: المتضمنة embedded، والمتجسدة

embodied، وكل يوم على الإنترنت everyday internet . مقارنة "هاين" تعتبر الإنترنت ككل، كما هو متضمن بالفعل في حياتنا اليومية، ثقافتنا وتفاعلاتنا الاجتماعية والاقتصادية، إلى حد أنه لا ينبغي أن يعتبر فضولاً. يتوافق ذلك مع الأعمال المبكرة لعالم الأنثروبولوجيا "فيليب بودكا" بالإعلان أن البيئة على الخط (على الإنترنت) ستكون ظاهرة اجتماعية واحدة كاملة تجمع بين المادي، الاجتماعي والرمزي في شبكة ترابطية. (Haverinen, 2015, p 84)

وهكذا يبدو أن مسألة فصل العالمين الواقعي والافتراضي لا تزال صعبة وغير واضحة المعالم لدى الكثير من الباحثين، وأن الاقتصار على العالم الافتراضي ليس كافياً بالنسبة للكثيرين للقيام بدراسة إثنوغرافية واضحة ومقنعة.

4.2 مسألة السياق في الإثنوغرافيا الافتراضية:

إن البحث الإثنوغرافي بالنسبة "لهامرلسي" و "أتكسون" منهجية بحث اجتماعي تتميز بالانخراط العميق للباحث - علناً أو خفياً- في حياة الناس لفترة من الزمن، يراقب ما يحدث ويسمع ما يقال، يسأل الأسئلة ويجمع ما يمكن من بيانات، بهدف تسليط الضوء على قضايا محورية في البحث". إن الباحث الإثنوغرافي هو باحث من النوع "المشاهد المشارك"، وبالتالي فإن البحث الإثنوغرافي يقع بين حدود البحث الكيفي السوسولوجي وبين البحث الإجرائي، كون هدفه الفهم والمشاركة في التغيير نحو الأفضل، وهو يقتضي قيام الباحث بمعايشة المجتمع موضوع البحث. (وهبة، 2003، ص 35)

إن يركز الباحث الإثنوغرافي على وصف السياق، دون محاولة فرض نظامه أو معتقداته على الموقف البحثي. ففهم السلوك وجمع البيانات والمعلومات وفهما وتفسيرها يجب أن يجري في مواقعها وسياقاتها الطبيعية، كما أن تعميم النتائج ليس هدفاً، فالمهم هو الوصف الدقيق والمتعمق للموقف موضوع الدراسة.

فكما يؤكد "ولسون" فإن الدراسة الإثنوغرافية تقوم على ركيزتين أساسيتين؛ الأولى هي التحليل النوعي للبيانات للظاهرة محل الدراسة، والثانية هي الاعتماد على الطبيعة. (دهان، 2017، ص33)، أي التأكيد على السياق الطبيعي للدراسة.

إن السياق وبناء السياق هما في الواقع مسألة معقدة في مجال الإثنوغرافيا الرقمية، حقيقة أنه في عالم اليوم المعقد نواجه بشكل متزايد بيانات متعددة التمركز أين لا شيء يمكن التسليم به وقبوله. بالإضافة إلى ذلك ومقارنة بالإثنوغرافيا "التقليدية"، هناك أنواع جديدة من القضايا المتعلقة بسياق السياق التي يحتاجها الإثنوغرافيون في الثقافة الرقمية والاتصال للمعالجة. (Varis, 2014, p 3)

على نطاق واسع إذاً الفرق بين البحث السابق والأخير هو الفرق بين دراسة "الأشياء" ودراسة "الإجراءات" السياقية أو دراسة النصوص والممارسات الثقافية. يتوافق هذا إلى حد كبير مع المرحلتين في البحث الاجتماعي حول التواصل بوساطة الوسائط التكنولوجية التي حددتها "هاين"؛ الأولى تميزت بالبحوث التجريبية، والثانية بالتطبيق المتزايد للمقاربات الطبيعية للظواهر عبر الإنترنت (على الخط) وما

تلاها من مطالبة باعتبار الإنترنت كسياق ثقافي مع التطبيق المتزايد للبحوث الإثنوغرافية. ففي الواقع تقترح "هاين" أن معرفتنا بالإنترنت كسياق ثقافي مرتبطة بشكل جوهري بتطبيق علم الإثنوغرافيا. (Varis, 2014, pp 3-4)

يشير "لول" إلى المسؤوليات والمتطلبات الخاصة التي ترتبط بها الممارسة الإثنوغرافية، بمجرد أن نستحضر أهمية سياق الإجراءات وتضمينها في نسيج الحياة اليومية، كما أنه على الباحثين العمل في إطار مجموعة محددة من المسؤوليات للقيام بما يلي:

(1) ملاحظة وتدوين السلوك الروتيني لجميع مميزات أنواع أولئك الذين هم محل الدراسة، (2)

القيام بذلك في البيئات الطبيعية حيث يحدث السلوك، (3) وضع الاستدلالات بعناية مع الأخذ بعين الاعتبار تفاصيل السلوك الاتصالي، مع اهتمام خاص بالطرق التي غالبا ما تكون خفية، ولكن تكشف عن جوانب السياق المختلفة التي تبلغ بعضها البعض (Jensen et Jankowski, 2002, pp 154-155).

يثير التركيز على سياق الإجراءات مشاكل كبيرة بشأن ترسيم مجال البحث والتأسيس لأي من العناصر من عالم (يحتمل أنه غير محدود) سياق العمل ستكون ذات صلة بالبحث المحدد في متناول اليد. هذا ما يعود بنا للمناقشة المألوفة حول المزايا والعيوب النسبية لاستراتيجيات البحث المفتوحة والمغلقة. (ibid, p155)

إن العمل في الفضاءات الافتراضية البحتة يؤدي إلى نقص تصور مشترك ومتبادل للسياق المادي، فهو لا يوفر أي معلومات عن الخصائص المادية والجمالية (رموز اللباس) للمستخدمين، وحتى تحليل أنماط التفاعل يتأثر أيضًا. في حين أن الحوار وجهًا لوجه لا يقتصر على الكلمات المنطوقة فحسب، بل يشمل أيضًا الإيماءات والمحاكيات وصوت الكلام ورائحة الشخص. أما التواصل عبر الإنترنت فيقتصر على الكلمة المكتوبة، والبعض مما يسمى "الرموز"، فالعمل الميداني في المساحات الافتراضية لا يمكنه الاعتماد على الأشكال الخارجية من الهيكلة.

إن الإثنوغرافيا تتمحور حول الكشف عن السياق وبالتالي التعقيد. إمكانات هذه الطريقة لا تكمن في الحد من التعقيد ولا في بناء النماذج، ولكن فيما يطلق عليه "جيرتر" "الوصف السميك أو الكثيف". إن المناقشة الحالية داخل الأنثروبولوجيا هي مناقشة حول الأنماط المختلفة من التعقيد الإثنوغرافي. فقبل قرن مضى طور إثنوغرافيين مثل "هادون"، "فرانز بوا" الأنثروبولوجيا، وبعد بضع سنوات "برونيسلو" و"ماليونوسكي" من خلال عدم الاكتفاء بدراسة فقط كائنات غير مفصلية، لكن بدلا من ذلك دراسة الناس في بيئتهم الطبيعية. هذا التحول من كائنات غير مفهومة لدراسة الناس في بيئتهم الطبيعية أصبح يفهم على أنه زيادة في التعقيد. وهو الأمر الذي جعل الشعور بالكمال في مطلع القرن الماضي مركزا للنقاش في الوقت الحالي. (Wittel, 2000, <http://www.qualitative-research.net/fqs/>).

هذه المناقشات وغيرها جعلت مسألة السياق من أشد المسائل تعقيدا، وأكثرها إثارة للجدل بين الإثنوغرافيين في إطار الممارسة على شبكة الإنترنت، وفي ظل تطوير الإثنوغرافيا الافتراضية.

خاتمة:

سنتظّل الإثنوغرافيا في شكلها التقليدي أو في شكلها الحديث أي الافتراضي، من أهم الطرق الكيفية في عملية جمع المعلومات والبيانات من المجتمعات على اختلاف أنواعها. وبالرغم من التطورات التي عرفتّها الإثنوغرافيا كمهنة وكمقاربة للبحث بفضل شبكة الإنترنت وما لحقها من تطورات، إلا أن الباحثين أبدوا الكثير من التحفظات بشأن هذا التطور لما له من انعكاسات على طريقة البحث وكيفية جمع المعلومات. لقد أدى الانتقال إلى عالم الإثنوغرافيا الافتراضية إلى تغيير ميدان البحث، الذي كان واقعا طبيعيا ليصبح افتراضيا سيبرانيا، أو حتى جامعا بين العالم الواقعي والافتراضي، وهو الأمر الذي لم يستغنه الكثير من الإثنوغرافيين، كما أنه يثير الكثير من التساؤلات حول جدوى الفضاء السيبراني، إن لم يكن يستطيع الصمود مستقلا وبعيدا عن العالم الحقيقي، وي طرح الحاجة إلى عالم متعدد المواقع. لقد غيرت الإثنوغرافيا الافتراضية حتى طرق إجراء الملاحظة بالمشاركة التي تعتبر الأساس الذي تقوم عليه الدراسات الإثنوغرافية، وكذلك الأمر بالنسبة للمقابلات. والتي لم يعد الأساس فيها المشاركة، بعد أن أصبحت تجرى من خلف الشاشة، وليس وجها لوجه كما هو الحال في إثنوغرافيا العالم الواقعي، وأضحت تستند إلى طرق وتقنيات أخرى حتى يتسنى القيام بها والاستفادة منها، كاستخدام تطبيقات الفيديو المختلفة.

إن التطورات في شكل وطريقة القيام بالأبحاث الإثنوغرافية لم تخلق مشكلات منهجية فحسب، ولكنها تطرح أيضا العديد من المشكلات الأخلاقية أيضا، ذلك أنها تتعامل مع شبكة الإنترنت التي يتخفى وراءها العديون، ولا يظهرون هوياتهم وشخصياتهم الحقيقية للباحث هذا من جهة، ومن جهة أخرى مشكلات تخص الباحث في حد ذاته كمسألة الولوج والخصوصية، فمن السهل الاختباء وراء شاشة الكمبيوتر والبقاء غير مرئي، رغم ضرورة وجود الباحث في بيئة البحث وفقا للإثنوغرافيا التقليدية.

إن ما يتوجب على الباحثين اليوم، هو الالتفاف حول هذه التطورات والاستفادة منها، والسعي لتجاوز الصعوبات والمشاكل التي تطرحها، وخاصة الإيمان بأن انتقال الإثنوغرافيا من العالم الواقعي إلى العالم الافتراضي، سيكون في خدمة المجتمع العلمي وخدمة هذا المنهج، وأنه من الطبيعي أن تتطور طرق البحث، وأن تراكب التغيرات والتطورات التي تحدث في المجتمع.

قائمة المراجع:

أولا- المراجع باللغة العربية:

-لارامي أ.، . فالي ب (2009)، البحث في الاتصال "عناصر منهجية"، ترجمة فضيل دليو وآخرون، جامعة منتوري قسنطينة، مخبر علم اجتماع الاتصال.

- أحمد البدوي ثريا ، (2015)، مستخدم الإنترنت "قراءة في نظريات الإعلام الجديد ومناهجه"، القاهرة، عالم الكتاب.
- ويمر روجر، دومينيك جوزيف،(2013)، مدخل إلى مناهج البحث الإعلامي، ترجمة صالح أبو أصبع و فاروق منصور، ط1، لبنان، المنظمة العربية للترجمة.
- ذو الفقار زغيب شيماء،(2009)، مناهج البحث والاستخدامات الإحصائية في الدراسات الإعلامية، ط1، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية.
- قنديلجي عامر، السامرائي إيمان،(2009)، البحث العلمي "الكمي والنوعي"، الأردن، دار اليازوري.
- سيد سليمان عبد الرحمن،(2014)، مناهج البحث، ط1، القاهرة، عالم الكتاب.
- الحمامي الصادق،(1998)، الإنترنت "الإشكاليات الرئيسية"، مجلة اتحاد الإذاعات العربية، العدد 1/1998.
- دهان مريم،(2017)، المقاربة الإثنوغرافية "تعريفها، مميزاتها، تقنياتها وعلاقتها بدراسات الجمهور"، مجلة تاريخ العلوم، ج1، العدد 8، الجزائر.
- وهبة نادر عطاء الله،(2003)، الأبحاث الإثنوغرافية "رؤى بحثية جديدة"، مجلة رؤى تربوية، العدد 10، فلسطين، مركز القحطان للبحث والتطوير التربوي.

ثانياً – المراجع باللغة الأجنبية:

- Bryman Alan, (2012), Social Research Methods, Forth edition, Oxford University Press
- Varis Piia, August (2014), Digital Ethnography, Paper 104, Tilburg Papers in Culture Studies, Tilburg University
- Jensen klaus Bruhn, Jankowski Nicholas W., (2002), A Handbook of Qualitative Methodologies for Mass Communication Research, Second Edition, London, Taylor and Francis Library
- Browne Liz,(2010), Cyber-ethnography the emerging research approach for 21 st century research investigation. Handbook of Research on Transformative Online Education and Liberation: Models for Social Equality
- Bonneville Luc Et Autres, (2007), Introduction Aux Methodes De Recherche En Communication, Canada, Edition Gaëtan Morin
- West Richard, Turner Lynn H., (2000), Introducing Communication Theory – Analysis and Application, United States of America, Mayfield Publishing Company
- Haverinen Anna, (2015), Internet Ethnography: The Past, the Present and the Future, Ethnologia Fennica, 42, 79. <https://journal.fi/ethnolfenn/article/view/59290>, Visited on 15-08-2019, 11:00 am
- Wittel Andreas, January (2000), Ethnography on the Move: from Field to Net to Internet, Vol 01, Art 21,<http://www.qualitative-research.net/fqs/>, Visited on 20-07-2019, 10:00 am
- Ardevol Elisenda, Gomez- Cruz Edgar, (2013), Digital Ethnography and Media Practices, 6, <https://doi.org/10.1002/9781444361506.wbiems193>, Visited on 26-10-2019, 21:00 pm